أسس البناء الحضاري من منظور الطاهر ابن عاشور من خلال التحرير والتنوير

The foundations of civilization from the perspective of Tahir Ibn Ashour through liberation and enlightenment

الباحث: بوتمرة الجيلالي

قسم العلوم الاسلامية – جامعة تلمسان

البريد الالكتروني: Boutemraim@gmail.com

الملخص:

يهتم هذا البحث ببيان الأسس التي يقوم عليها البناء الحضاري من منظور العلامة الطاهر ابن عاشور، من خلال تفسيره التحرير والتنوير، وتهدف هذه الدراسة إلى بيان تلك الأسس التي من شأنها أن تنشئ مجتمعا حضاريا، بمقوماته الروحية والمعرفية والمادية، يتحرر فيها الإنسان من كل أشكال العبودية، ويستعلي بإنسانية الانسان على المادة، وتسود فيه القيم الإنسانية التي تنمي فيه إنسانية الإنسان، وتكون المبادئ هي أساس الروابط بين الناس لا العرف واللون والأرض. ويحقق الإنسان الخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه وشريعته العليا. وقد سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

كلمات مفتاحية:أسس، البناء، الحضارة، ابن عاشور، التحرير والتنوير

Abstract:

This research is interested in explaining the foundations on which civilization is based from the perspective of the pure scholar Ibn Ashour, through his interpretation of liberation and enlightenment, and this study aims to demonstrate those foundations that would create a civilized society, with its spiritual, cognitive and material components, in which human humanity is developed, and principles are the basis of the bonds between people, not custom, color and land. A person achieves succession in the land according to God's covenant, his condition and his supreme law. In this research, I used the deductive inductive method.

Key words: Foundations, construction, civilization, Ibn Ashour, liberation and enlightenment

مقدمة:

إن الاهتمام بموضوع البناء الحضاري للأمة الاسلامية قد شغل كثيرا من الدارسين والباحثين، ولقد انصبت دراساتهم حول جوانب متعددة، لإبراز خصائص تلك الحضارة الاسلامية ومظاهرها، وإسهاماتها في نفع البشرية، عبر العصور المتتالية في مختلف المجالات.

إن البحث في الحضارة الإسلامية لا ينتهي عند حدّ، لأن الحضارة الإسلامية موضوع مفتوح لا سبيل إلى إغلاقه، وحقول البحث فيها متّسعة المساحات ممتدة الآفاق، ومن هذا المنطلق سنتناول في هذه الدراسة أسس البناء الحضاري، لما يكتسيه هذا الموضوع من أهمية كبيرة في ابراز المسار الذي سارت فيه الأمة الإسلامية لتحقيق النقلة الحضارية، والمرتكزات التي قامت عليها تلك الحضارة، وقد اخترت العلامة الطاهر ابن عاشور لأبرز من خلال تفسيره التحرير والتنوير ما أصّله من أسس كانت بمثابة المرتكزات التي بنى عليها المسلمون حضارتهم.

كان الهدف من هذه الدراسة أن نبيّن أن الحضارة الإسلامية هي حضارة أخذ وعطاء واستيعاب وإغناء، وليس من خصائصها الصراع أو الصدام مع أي حضارة، بل هي حضارة السماحة والتعاون على البر والتقوى والدعوة إلى اللّه بالتي هي أحسن.

ومن هنا نطرح الاشكالية التالية: ما هي أسس البناء الحضاري كما يراها الطاهر ابن عاشور؟ وكيف أصّل لذلك في تفسيره التحرير والتنوير؟

2. مفهوم الحضارة لغة واصطلاحا

1.2 الحضارة لغة:

الحضارة -بكسر الحاء وفتحها-تعني الإقامة في الحضر، جاء في القاموس المحيط: "أن معناها من حضر وهو ضد غاب والحاضرة والحضارة خلاف البادية" (الفيروزآبادى، 1426 هـ - 2005 م، صفحة 376/1، 377)، وجاء في لسان العرب

المعاني التالية: الحضور نقيض المغيب والغيبة، والحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر الحاضرة الحي العظيم" (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 196/4).
الحضارة في عرف اللغة كما رأينا ترتبط بالحضر، والعمران، وهي نقيض البداوة.

2.2 الحضارة اصطلاحا:

للحضارة اصطلاحا تعاريف مختلفة نكتفي بتعريفين هما:

الأول: لابن خلدون حيث يعرف الحضارة كالتالي: " هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير... فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضًا كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها، وأن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بفوائدها" (ابن خلدون:، دون تاريخ، صفحة 475).

يشرح الدكتور حسين مؤنس تعريف ابن خلدون قائلا:" فالحضارة عنده هي الوصول إلى منتهى العمران، أي إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة، والدخول في دور الحضارة، وهو دور الرقي الاجتماعي الثابت الذي لا يتطور وهو لهذا مرحلة الثبات على مستوى من الرقي لا يبقى بعده إلا الانحدار، وهو لهذا يقول إن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد" (مؤنس، 1978، صفحة 335).

الثاني: لمالك بن نبي حيث عرفها من خلال تحليل بنيتها بالمعادلة الرياضية التالية:" الحضارة= إنسان+تراب+وقت (ابن نبي، 1979/1399، صفحة 45)، يقول بدران بن الحسن أن مالك بن نبي أن هذه الصيغة تشير إلى " أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما بأن نحل المشكلات الثلاثة من أساسها" (بدران، 2003).

من العلماء من اعترض على ابن نبي في هذا التعريف، ومنهم الدكتور البوطي في كتابه "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، على أنه تعريف تغلب عليه النزعة المادية (البوطي، 1981)، فأضاف بن نبي في طبعة أخرى لكتابه شروط النهضة، أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة.

3.2 تعريف الحضارة عند ابن عاشور:

تحدث ابن عاشور عن موضوع الحضارة في ثنايا تفسيره، في شكل استطرادات تبعية للتفسير، يبرز من خلالها نظرته التجديدية، فقد جعلها بداية نقيض البداوة (ابن عاشور، 1984، صفحة 397/2)، وهذا يدل على اهتمامه بالمعنى اللغوي للمصطلح، ثم تحدث عن أول مظاهرها وهو ستر النقائص وتحسين الحال (ابن عاشور، 1984، الصفحات 8-ب/64، 73)، حيث استنبط ذلك من قصة آدم عليه السلام.

ثم جعل من مظاهرها كذلك: "الغرس والتّجارة والإجارة والأبنية" (ابن عاشور، 1984، صفحة 39/5)، وأكّد نفس المعنى في موضع آخر من تفسيره حينما تحدث عن اتخاذ المساكن، فقال: "وهي أيضًا أصل الحضارة والتَّمدُّن لأنَّ البلدان ومنازل القبائل تتقوَّم من اجتماع البيوت" (ابن عاشور، 1984، صفحة 237/14)، وهذا الذي ذكره ابن عاشور يدور حول ربط معنى الحضارة بمعنى العمران، وهو نفس الطرح الخلدوني.

إن الفكرة الجوهرية التي أتى بها ابن عاشور في مسألة الحضارة أنها ترتكز على الاستنباط الفكري والتقليد، حيث أخذ ذلك من قصة ابني آدم حيث قال: " ألم تر كيف اهتدى أحد بني آدم إلى دفن أخيه من مشاهدة فعل الغراب الباحث في الأرض فكانت الاستنباط الفكريُّ والتَّقليد به أُسَّ الحضارة البشريَّة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 303/2)، ثم انتقل ابن عاشور إلى أحد مرتكزات الحضارة وهو الوقت حيث قال:" "فمن معرفة اللَّيالي تعرف الأشهر، ومن معرفة الأشهر تُعرف السَّنة. وفي ذلك رفقٌ بالنَّاس في ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم وهو أصل الحضارة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 96/11)، وهذا جزء من الفكرة التي طرحها مالك بن نبي، ولعل هذا من توارد الخواطر.

يلاحظ أن ابن عاشور لم يتحدث عن الحضارة أصالة، ولم يفردها بتعريف خاص وإنما بث أفكاره حولها متناثرة في ثنايا تفسيره كلما استطرد في العملية التفسيرية، ولم يخرج كثيرا عن المعنى اللغوي للمصطلح.

3.أسس البناء الحضاري عند ابن عاشور:

لابد للحضارة من أسس تقوم عليها وتنبني عليها ركائزها، ولقد تناول ابن عاشور تلك الأسس في ثنايا تفسيره، التحرير والتنوير، وهو ما سنبرزه في النقاط التالية مستعينين بعملية الاستقراء:

1.3 الأسس الروحية:

من الغايات العليا للإسلام إيجاد التوازن في حياة الفرد والمجتمع بين الجانب الروحي والجانب المادي، في حدود الإمكان، وبهذا التوازن يمتاز الإسلام عن الديانات التي اشتملت على الكثير من التعاليم التي تخالف الطبائع البشرية، كما يمتاز عن الاتجاهات الفلسفية الانحلالية التي تريد الانحدار بالإنسان إلى مستوى الحيوان، وفي هذا السياق يرى ابن عاشور أن هناك ثلاثة جوانب ينبغي الاهتمام بها وهي:

1.1.3 الجانب الاعتقادي

يرى ابن عاشور في المقدمة الرابعة من تفسيره التحرير والتنوير أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد تكفلا بشرح العقيدة وما يحتاج إليه المسلم من العلم بعالم الغيب بأدلة وبراهين مقنعة، حيث اعتبر اصلاح الاعتقاد هو: "أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنَّه يزيل عن النَّفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدَّليل، ويُطهِّر القلب من الأوهام" (ابن عاشور، 1984، صفحة 40/1).

ومن هذا المنطلق يرى ابن عاشور أن " الصَّلاح الفرديُّ يعتمد تهذيب النَّفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأنَّ الاعتقاد مصدر الآداب والتَّفكير" (ابن عاشور، 1984، صفحة 38/1).

وبعد ترسيخ هذه العقيدة أمر الإسلام المسلم بأن لا يخوض في عالم ما وراء الطبيعة، بل عليه أن يشغل عقله وفكره بعالم المادة والطبيعة لإنتاج العمل الصالح وخدمة الإنسان وتعمير الكون في ضوء منهج الصلاح، ولذلك اهتدى المسلمون إلى المنهج التجريبي الذي أخذه الغرب فيما بعد وبنى عليه حضارته القوية، ومن هذا المنطلق فقد ذكر ابن عاشور تنبها له ارتباط بالجانب الاعتقادي قد أسيء فهمه وهو:

- **إعمال قانون السببية في الخلق:**

إن ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، أو ما يعبر عنه بقانون السببية، هو من جملة سنن الله تعالى في الكون، ولقد انطلق ابن عاشور في تقرير هذا القانون من منطلق عقدي حيث قال أن الله هو: " مُوجِدُ الْأَسْبَابِ وَمُسَبِّبَاتِهَا"(ابن عاشور، 1984، صفحة 303/3)، ثم بيَّن في تفسيره أن الإسلام قد أقرّ هذا القانون في إطار متوازن مع الإيمان بقدرة الله تعالى وإرادته دون تعارض ولا تصادم، وفي سياق ذلك فرق ابن عاشور بين التوكل الذي يعني الاعتماد على الله والإيمان بقدرته، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة، وبين التواكل المنبوذ الذي يعني التكاسل وإهمال الأخذ بالأسباب وبالتالي الفشل والخسران، واعتبر أن مفهوم التوكل من المفاهيم التي: "حرَّف القاصرون ومن كان على شاكلتهم معناه، فأفسدوا هذا الدّين من مبناه" (ابن عاشور، 1984، صفحة 151/4).

ولم يكتف ابن عاشور بذلك بل جعل إهمال الأسباب من قبيل تحريف معنى الايمان بالقدر، حيث قال: " فأمَّا ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالفٌ لما أراد اللَّه منَّا، وإعراضٌ عمَّا أقامنا اللَّه فيه في هذا العالم وهو تحريفٌ لمعنى القدر" (ابن عاشور، 1984، صفحة 138/4)، واعتبر أن السعي إلى المسببات دون الأسباب هو من سوء الأدب مع الخالق حيث قال: "فتطلُّب المسبَّبات دون أسبابها غلطٌ وسوء أدب مع خالق الأسباب ومسبَّباتها" (ابن عاشور، 1984، صفحة 212/2)

لقد بيّن صاحب التحرير والتنوير كيف تجلّى هذا القانون في حياة المسلمين وتاريخهم، حيث قال إن " معرفَة ترتّب المسبَّبات على أسبابها في الخير والشَّرّ والتَّعمير والتَّخريب لتقتدي الأمَّة وتحذر" (ابن عاشور، 1984، صفحة 66/1)، وجعل العقوبات الدنيوية مرتبطة بأسباب " لأنَّ العقوبات الدّنيويَّة مُسَبَّبَاتٌ تنشأ عن أسبابها" (ابن عاشور، 1984، صفحة 119/9).

إن هذه العقيدة القائمة على الأخذ بالأسباب جعلت المسلمين يبذلون كل جهودهم لتحقيق أسباب القوة والحضارة والتمكين غير معتمدين على الخيال والخرافات، وحتى الكرامات التي إن أتت فهي بفضل الله تعالى، فلم يدخل

المسلمون على مر تاريخهم في أية معركة عسكرية أو حضارية معتمدين على الكرامات فقط، بل اعتمدوا على الله تعالى ثم على جميع الأسباب الممكنة.

2.1.3 الجانب التشريعي:

لا يمكن تصور قيام أي حضارة بدون تشريعات تنظم الحياة، ولقد سمى ابن عاشور ذلك "الصلاح الجماعي" (ابن عاشور، 1984، صفحة 1 /38)، الذي يعني: " ضبط تصرُّف النَّاس بعضهم مع بعضٍ على وجهٍ يعصمهم من مزاحمة الشَّهوات ومواثبة القوى النَّفسانِيَّة " (ابن عاشور، 1984، صفحة 38/1)، ولهذا يرى صاحب التحرير والتنوير أن الجماعات البشرية كانت في أول عهود الحضارة عاكفة "على عوائد وتقاليد بسيطة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 192/3)، ثم انتقلت إلى خطوات متقدمة بسبب التقارب بين البشر والتقليد، مما ولّد لديها أسلوب المقارنة فتمت صياغة شرائع تنظم أحوال المجتمعات، وتضمن سلامتها ورقيها، وتنسق العلاقات بين أفرادها، وتشد الأواصر فيما بينهم، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور:" ثمَّ أخذ البشر يتعارفون بسبب الفتوح والهجرة، وتقاتلت الأمم المتقاربة المنازل، فحصل للأمم حظٌّ من الحضارة، العوائد، وتوسَّعت معلوماتهم، وحضارتهم" (ابن عاشور، 1984، صفحة 192/3)، ثم يسرد لنا جملة من تلك الشرائع التي ظهرت في التاريخ مترافقة مع نشوء الحضارة فقال:" فكانت من الشَّرائع الإلهيَّة: شريعة إبراهيم عليه السَّلام، ومن غيرها شريعة (حمورابي) في العراق، وشريعة البراهمة، وشريعة المصريّين...ثمَّ أعقبتها شريعةٌ إلهيَّةٌ كبرى وهي شريعة موسى عليه السَّلام ... أعقبتها شرائع مثل شريعة (زرادشت) في الفرس، وشريعة (كُنْفُشيوس) في الصّين، وشريعة (سُولون) في اليونان." (ابن عاشور، 1984، صفحة 192/3)

ثم يرسم لنا ابن عاشور الإرهاصات التي سبقت مجيء الشريعة الإسلامية، وما حدث من التقارب والتقابس بين الحضارات كتمهيد لولادة الرسالة الخاتمة، حيث يقول:" إلى أن كان في القرن الرَّابع بعد المسيح حصول تقابس وتمازج بين أصناف البشر في الأخلاق والعوائد...نشأت يقظةٌ جديدةٌ، وتأسَّست مدنيَّاتٌ متفنّنةٌ، وتهيَّأت الأفكار إلى قبول التَّغييرات القويَّة، فتهيَّأت جميع الأمم إلى قبول

التَّعاليم الغريبة عن عوائدها وأحوالها، وتساوت الأمم وتقاربت في هذا المقدار، وإن تفاوتت في الحضارة والعلوم تفاوُتًا ربَّما كان منه ما زاد بعضها تهيّئوا لقبول التَّعاليم الصَّحيحة، وقهقر بعضا عن ذلك بما داخلها من الإعجاب بمبلغ علمها، أو العكوف والإلف على حضارتها...فبلغ الأجل المراد والمعيَّن لمجيء الشَّريعة الحقّ الخاتمة العامَّة." (ابن عاشور، 1984، صفحة 193/3)

في سياق تناوله لمسألة البناء الحضاري، ركّز ابن عاشور في تفسيره على موضوع تاريخ التشريع وأصوله، وجعله من الفوائد المستنبطة من القصص القرآني، واعتبره من النوافذ التي يطل منها المسلمون على الحضارات السابقة لغرض الاستفادة منها في مقام التشريع، فقال: " وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنيَّة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 67/1)، ولتوضيح ذلك ضرب لنا أمثلة في المقدمة السابعة من التحرير والتنوير حيث قال:

- كقوله تعالى: [كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ] [يوسف: 76]، أي في شرع فرعون يومئذ، فعلمنا أنَّ شريعة القبط كانت تُخوِّل استرقاق السَّارق." (ابن عاشور، 1984، صفحة 67/1)
- "وقوله: [قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ] [يُوسُف: 79]، " يدلُّ على أنَّ شريعتهم ما كانت تُسوّغ أخذ البدل في الاسترقاق، وأنَّ الحرَّ لا يُمْلَك إلَّا بوجه معتبر" (ابن عاشور، 1984، صفحة 67/1).
- "ونعلم من قوله: [قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ] [الشُّعَرَاء: 36]، [فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ] [الشُّعَرَاء: 53]، أنَّ نظام مصر في زمن موسى إرسال المؤذّنين والبريدِ بالإعلام بالأمور المهمَّة " (ابن عاشور، 1984، صفحة 68/1)

3.1.3 الجانب الأخلاقي:

تمثِّل الأخلاق والقيم الجانب المعنوي أو الرُّوحي في الحضارة الإسلامية، وأيضًا الجوهر والأساس الذي تقوم عليه أي حضارة، وفي ذات الوقت تضمن سرَّ بقائها

وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهو الجانب الذي إذا اختفى يومًا فإنه يُؤْذِنُ بزوال الدفء المعنوي للإنسان، الذي هو رُوح الحياة والوجود؛ فيصير وقد غادرت الرحمة قلبه، وضعف وجدانه وضميره عن أداء دوره، ولم يَعُدْ يعرف حقيقة وجوده فضلاً عن حقيقة نفسه، وقد بات مُكَبَّلاً بقيود مادية لا يعرف منها فِكَاكًا ولا خلاصًا.

والحقيقة أيضًا أن هذا الجانب -جانب الأخلاق والقيم-لم يُوَفَّ حقُّه إلا في حضارة المسلمين، تلك التي قامت في الأساس على القيم والأخلاق، وبُعث رسولها خاصة ليُتَمِّمَ مكارم الأخلاق ويكملها، وذلك بعد أن تشرذمت وتفرَّقت وأُهْمِلَتْ بين الأمم والحضارات.

لقد بيّن ابن عاشور في المقدمة الرابعة من تفسيره أن من المقاصد التي جاء القرآن الكريم لتبيانها: " تهذيب الأخلاق" (ابن عاشور، 1984، صفحة 40/1)، وذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم:" «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ»(البخاري، 1419 هـ - 1998 م، صفحة 143/1)، وهذا المقصد قد ارتبط بأحكام الإسلام التي قيدت كثيرا من السلوكيات الخاطئة للعرب.

تلك الأخلاق والقيم التي لم تكن يومًا نتاج تطور فكري على مرِّ العصور، وإنما كانت وحيًا أوحاه الله عزَّ وجلَّ وشرَّعه رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، فكان مصدرها التشريع الإسلامي.

2.3 الأسس المعرفية:

إن الحضارة الإسلامية قدمت نموذجا معرفيا فريدا، يمتاز بالتكامل والشمولية؛ وهو يقوم على مجموعة من الجوانب وهي:

1.2.3 الجانب السياسي:

هو ما يتعلق بهيكل الحكم ومؤسساته في الدولة الاسلامية، ولأهميته فقد اهتم الإسلام ببيان ما على الحاكم والمحكوم، وفي هذا السياق يرى ابن عاشور أن الجانب السياسي هو من الأسس المعرفية للبناء الحضاري، حيث يعرفه لنا بداية فيقول: هو" تقويم الأمة وإصلاح شؤونها وهو المسمَّى علم السّياسة المدنيَّة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 63/3)، ثم يجعل صاحب التحرير والتنوير الإصلاح محورا

ينبغي أن تدور حوله السياسة فيقول: "فإنَّ سياسة الأمَّة تدور حول محور الإصلاح" ويشرح معنى الإصلاح بقوله: "فجميع تصرُّفات الأمَّة وأحوالها يجب أن تكون صالحة، وذلك بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصَّلاح لفاعلها ولغيره" (ابن عاشور، 1984، صفحة 87/9، 88).

2.2.3 الجانب الاجتماعي:

إن النظام الاجتماعي المتكامل الذي جاء به الإسلام، وصبغ به الحياة، وقامت عليه الحضارة الإسلامية، هو نظام فريد، ينظم الحياة وينسقها، ولا تتداخل فيه أهواء البشر الشاردة، أو أنظارهم القاصرة.

اكتسب المجتمع في ظل الإسلام ضمانات تحميه من التفكك عن طريق التشريع الإسلامي الذي ضمن حقوق كل فرد في المجتمع، كما حرص الإسلام على تكريم الأسرة التي تعد الوحدة الأولى للمجتمع، وأخرج الإسلام الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد القهار، وأخرجهم من عبادة المادة إلى عبادة الله، وأراد تحريرهم من التخلف العقلي والعقائدي، وترقيق مشاعرهم وأحاسيسهم، والسمو بها إلى أعلى منزلة.

فناسب أن يكون نظام الحياة الاجتماعية قد قام على أسس نذكرها في النقاط التالية:

- **المساواة بين البشر:**

أقامت الحضارة الإسلامية المجتمع على قاعدة مهمة مستقيمة، هي المساواة التامة بين البشر، حيث تقرر أن التفاضل لا يكون إلا بالتقوى، بين الأفراد والجماعات، وبين الأجناس، وبين الحاكم والمحكوم، لا فضل لرجل على رجل، ولا أبيض على أسود، ولا عربي على عجمي، وفي هذا المعنى فسّر ابن عاشور قوله تعالى [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [الحجرات: 13]، بقوله: " وحكمته من هذا الجعل أن يتعارف النَّاس، أي يعرف بعضهم بعضًا" (ابن عاشور، 1984، صفحة 259/26)، ويرى ابن عاشور أن هذا التعارف هو السبيل الأمثل للتعاون على بناء الحضارة الانسانية، فيقول: " وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلَّا بهذا

النَّاموس الحكيم" (ابن عاشور، 1984، صفحة 260/26)، ويؤكد ذلك في موضع آخر من تفسيره فيقول إن هذا التعارف القائم على تراكمات الجهود: " جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار" (ابن عاشور، 1984، صفحة 56/19)

لقد قامت حضارة الإسلام على الوحدة الإنسانية المتكاملة، التي تمحى فيها الامتيازات القائمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية، ومن المحال أن تكون حضارة إنسانية عالمية إلا بتحقيق ذلك؛ لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد، ومن جانب آخر تطهرها من كل ما قد يكون فيه من الميول المتناقضة.

- **العدل:**

يقول ابن عاشور في كتابه "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام": "العدل هو عكس الجور، وهو كلمة ترجع إلى المعادلة بين شيئين" (ابن عاشور م.، 1985، صفحة 186) ويمكن اعتباره من القيم الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مُقَوِّمَاتِ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، حتى جعل القرآنُ إقامةَ القسط - أي العدل - بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها، فقال تعالى:[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ] [الحديد: 25]، " وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رُسُله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أُنْزِلَتِ الكتب، وبُعِثَتِ الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض" (القرضاوي، 1993، صفحة 133)

لقد ذكر ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا] [النساء: 135]، أن العدل هو قوام صلاح المجتمع وغيابه يجر إلى الفساد، فقال: " العدل في الحكم وأداء الشَّهادة بالحقّ هو قوام صلاح المجتمع

الإسلاميّ، والانحراف عن ذلك ولو قيد أُنْمُلةٍ يَجرُّ إلى فسادٍ مُتسلسل" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 224/5).

وفي تقرير واضحٍ وصريحٍ لإحقاق العدل وتطبيقه حتى مع الأعداء المبغضين، يقول الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ] [المائدة: 8]، و"الشَّنَآن" المذكور في هذه الآية الكريمة هو: "شِدَّةُ الْبُغْضِ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 86/6)، ولهذا ورد النهي عنه أي: لا "يُكْسِبُكُمُ الشنآن الِاعْتِدَاءَ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 86/6) أي لا يحملنكم بُغضُهم على الاعتداء عليهم في الحكم.

فالعدل في الإسلام -كما ذكر ابن عاشور-لا يتأثَّر بحبٍّ أو بغضٍ، ولا يُفرّق بين مسلم وغير مسلم، بل يتمتَّعُ به جميعُ المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين، مهما كان بين هؤلاء وأولئك من مودَّة أو شنآنٍ، وغيابه يجرُّ الفساد المحقق.

- **الحرية:**

تقيم الحضارة الاسلامية المجتمع على أساس الحرية في أجلّ معانيها، وأسمى مقاصدها، وأروع مظاهرها، وفي هذا المعنى يقول ابن عاشور:" ومن أسرار الشَّريعة الإسلاميَّة حرصها على تعميم الحرِّيَّة في الإسلام بكيفيَّة منتظمة" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 5/ 158)، لقد بلغ من اهتمام ابن عاشور بقضية الحرية أن جعلها قرينة الحياة فقال: " وقد نبَّهت الشَّريعةُ بهذا على أنَّ الحرِّيَّة حياةٌ، وأنَّ العبوديَّة موتٌ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 159/5)، ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ الحريات التي كفلتها الحضارة الإسلامية في نظر ابن عاشور تتمثل فيما يلي:

- ❖ **حرية الإعتقاد**

قال تعالى [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [البقرة: 256]، حيث يقول ابن عاشور: "وَهِيَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى إِبْطَالِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ بِسَائِرِ أَنْوَاعِهِ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 26/3).

❖ **حرية الفكر:**

وهي من ثمرات عدم الاكراه، حيث يقول ابن عاشور:" لِأَنَّ أَمْرَ الْإِيمَانِ يَجْرِي على الِاسْتِدْلَال، والتمكين مِنَ النَّظَرِ، وَبِالِاخْتِيَارِ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 26/3)، ومن هنا ندرك أن الحضارة الإسلامية دعت إلى إعمال الفكر، استجابة للنداءات القرآنية، كقوله تعالى: [قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ] [سبأ: 46]، وقوله تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] [فصلت: 53]، وقوله تعالى [قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ] [يونس: 101]، وقد جعل ابن عاشور هذه الآيات القرآنية التي تدعو إلى إعمال الفكر والعقل من خصائص الانسان الذي يبني الحضارة والذي يختلف عن سائر المخلوقات، فقال: " فَإِنَّهَا لَا تُمَاثِلُ الْإِنْسَانَ فِي التَّفْكِيرِ وَالْحَضَارَةِ الْمُكْتَسَبَةِ مِنَ الْفِكْرِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 217/7).

❖ **حرية القول في حدود الشرع**

بل قد يكون مطلوباً إذا كان أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر [وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [آل عمران: 104]، فالإنسان في المنهج الإسلامي سيد نفسه، وله الحق في أن يمارس حريته بشرط ألا تستبد به أهواءه، أو تستبعده شهواته، وعدم تعارضها مع الصالح العام، فلا تتعارض حريته مع حق المجتمع بكامله.

وفي هذا السياق حذّر ابن عاشور من استخدام حرية القول لغرض الإفساد والاضلال فقال: "وأكثر أنواع الضَّلال الَّذي أُدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحقّ بالباطل" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 471/1)، ثم ذكر نماذج من تاريخ الإسلام حول ذلك، ومنها ما فعله الناقمون على عثمان رضي الله عنه، وما فعله الخوارج زمن علي رضي الله عنه...وأمثلة أخرى.

- **الأخوة:**

إن من ركائز الحضارة الإسلامية أن تنشأ رابطة بين أفراد المجتمع الواحد، تجتمع على مبدأ واحد تحمل لواءه وتبعاته، لتقوى على الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى، ثم بقوة الحب والألفة، وهذه الرابطة سماها القرآن الكريم " الأخوة"، فقال تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] [الحجرات: 10]، وفي بيان هذا المعنى يقول ابن عاشور:" وإطلاق وصف الأخ على المماثل في دين الإسلام تأسيس أصل جاء به القرآن جعل به التَّوافق في العقيدة كالتَّوافق في نسب الأخوَّة، وحقًّا فإنَّ التَّوافق في الدّين آصرةٌ نفسانيَّةٌ والتَّوافق في النَّسب آصرةٌ جسديَّةٌ والرُّوح أشرف من الجسد" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 142/2).

3.2.3 التلاقح الحضاري:

إن التلاقح من المصطلحات التي تشير إلى التفاعل، وهو من القيم التي تنطوي على سعيٍ لتحقيق أهدافٍ واهتماماتٍ مشتركة، ولهذا يمكن اعتباره سلوكا حضاريا، وضرورة حياتية لا تستغني عنه جميع المجتمعات، بل هو سرّ نجاحها.

لقد تناول ابن عاشور هذه المسألة من خلال بيان قيمة التعاون بين البشر، على تحقيق معنى البر، وجعله هدفا إنسانيا لا يرتبط بدين معين، فقال في تفسيره لقوله تعالى [وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ][المائدة: 2]، "فهم وإن كانُوا كفَّارًا يُعاوَنُون على ما هو برٌّ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 87/6).

إن قيمة التعاون -في نظر ابن عاشور-تنطلق من التعارف بداية، لبناء الحضارة، ولا يقتصر التعاون على المسلم مع المسلم بل يتعداه إلى غير المسلم إذا كان الهدف نبيلا وهو: "تحقيق البرّ" كما ذكرنا.

إن الله سبحانه وتعالى حينما جعل البشر شعوبا وقبائل، لم تكن الغاية هي التقاتل، ولا التنافر، ولا التفاخر، ولا التعالي، ولا حتى العكس: الذوبان في بعضهم البعض، ومحاولة طمس الفروق التي هي شرط التلاقح الحضاري، بل جعلت الغاية من الاختلاف هو التعارف، والتعارف لا يكون إلا بالاطلاع على معارف

مجهولة لدى طرف ومعلومة عند آخر، ولن يكون ذلك إلا في إطار الاختلاف الذي سماه القرآن: " شعوبا وقبائل".

ينظر الإسلام إلى أن الحضارات جميعها تراث إنساني فيه عناصر، والأمة الإسلامية مطالبة بأن تأخذ منها ما هو صالح ونافع وتضيف إليه ما تستطيع إضافته ليكون لها دور وريادة وقدرة على البناء والتمكين.

فالمسلمون مطالبون بأن يأخذوا كل ما هو الأحسن من القول والفعل والتراث والعلم، والحضارة، ومن هذا المنطلق بذل المسلمون جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في ترجمة التراث الإغريقي واليوناني والفارسي والهندي إلى اللغة العربية، وقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يستفيدوا من حضارات الأمم السابقة، وتاريخهم، وما تركوه، وما آلوا إليه من نتائج، ولذلك ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصصاً كثيرة للأمم والشعوب، ثم أمر المسلمين بالعبرة والاتعاظ وأخذ الدروس والفوائد من كل ما فعلوه: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] [يوسف: 111].

3.3 الأسس المادية:

الحضارة الإسلامية مبنية على التوازن بين الأساس الروحي والأساس المادي، فهي تقدر الأشياء بقدرها، ولا تبخسها حقها، فكما ترى أن الروح ضرورية، فكذلك الارتقاء في الجانب المادي له قيمته واعتباره، ولهذا يرى ابن عاشور أن هناك عدة جوانب تتعلق بالأساس المادي للحضارة الإسلامية يمكن ذكرها فيما يلي:

1.3.3 الجانب الصناعي:

لم تكن الصناعة مزدهرة في الجاهلية، بل كانت بسيطة، تُركت للعبيد وازدهر منها في اليمن صناعة الرماح والسيوف والمجانيق... ولما جاء الإسلام أولى قضية التصنيع أهمية واضحة، فأوجد ألوانًا من الصنائع ما كانت العرب تعرفها، وأمر بعمران هذه الأرض واستثمار خيراتها، قال جل وعلا في كتابه العزيز: [وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ][الجاثية: 13].

لقد ازدهرت الصناعة وتطورت في الدولة الاسلامية بفضل قيام الخلفاء برعايتها وتوفير المواد اللازمة التي تحتاجها، كما أن الاسلام قد حث على العمل وأمرنا بإتقانه وجعل العمل عبادة يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل، لذلك كان كل فرد يجيد ما يقوم به.

لقد استثمر ابن عاشور بعض التنبيهات والاشارات الضمنية الواردة في القرآن الكريم ليتحدث عن بعض أنواع الصناعات والحرف التي تكتمل بها عناصر الحياة الطيبة ومقومات الحضارة القوية، من ذلك:

❖ **الصناعة النسيجية والحياكة:**

لقد جاءت الإشارة في القرآن الكريم إليها في قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا} [الأعراف: 26]، يقول ابن عاشور في تفسيرهذه الآية الكريمة أن هذا النداء القرآني " مِمَّا خَاطب الله بِهِ بَنِي آدَمَ فِي ابْتِدَاءِ عَهْدِهِمْ بِعُمْرَانِ الْأَرْضِ"، (ابن عاشور م.، 1984، الصفحات 8-ب/72) ثم يقرر بعد ذلك أن اللباس هو " أَوَّلُ مَظَاهِرِ الْحَضَارَةِ" (ابن عاشور م.، 1984، الصفحات 8-ب/ 73).

❖ **الصناعة الحربية:**

من الإشارات الضمنية الواردة في القرآن الكريم حولها ما جاء في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد: 25]، حيث يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية الكريمة أن القرآن الكريم يحث على استخدام الحديد في الصناعة الحربية: "والمقصودُ من هذا لفت بصائر السَّامعين إلى الاعتبار بحكمة اللَّه تعالى من خلق الحديد وإلهام صُنعه" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 27/ 417)، " من سُيوفٍ ودُروعٍ ورماحٍ ونبالٍ وخُوذٍ ودَرقٍ ومَجانّ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 27/ 416، 417).

وفي سورة الكهف جاءت الإشارة واضحة لهذا المعنى في قوله تعالى على لسان ذي القرنين: "آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ" [الكهف 96]، حيث يقول ابن عاشور: "ومن تلك الزُّبر تُصنعُ الأشياءُ الحديديَّةُ من سُيوفٍ وزُجاجٍ ودُروعٍ ولأماتٍ، ولا وسيلة لصنعه، إلَّا الصَّهْر أيضًا بالنَّار بحيث تصير الزُّبرة كالجمر، فحينئذ تشكَّل بالشَّكل المقصود

بواسطة المطارق الحديديَّة. والعصر الذي اهتدى فيه البشر لصناعة الحديد يسمَّى في التَّاريخ العصر الحديديّ" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 37/16).

2.3.3 الجانب العمراني:

العمارة الإسلامية هي أحد مظاهر الحضارة التي ميّزت التاريخ الإسلامي ولا تزال هذه العمارة إلى الآن شاهدة على عظمة هذه الحضارة وإنسانيتها، ولم تقتصر تلك العمارة على المساجد والمنازل فقط، بل امتدت لتشمل المدارس والأسبلة وحتى القلاع والحصون ما يدل على اهتمام الحضارة الإسلامية بكافة مناحي النشاط الاقتصادي والاجتماعي وأيضا الحربي، وجمعت العمارة الإسلامية بين مختلف أشكال الفنون الأخرى.

انقسمت العمارة الإسلامية إلى ثلاثة أنواع هي عمائر دينية مثل المساجد والأضرحة، وعمائر مثل القصور والقناطر والأسبلة والمدارس، وعمائر حربية مثل القلاع والحصون والأبراج والأسوار والبوابات.

3.3.3 الجانب الإداري:

تعتبر الإدارة من المظاهر التي ترافق الوجود الحضاري لأي مجتمع، فحيث يوجد مجتمع منظم توجد الإدارة، ومن ثَمَّ يمكن القول بأن إدارة الدولة الإسلامية لم تكن تتبع الأساليب العشوائية، وإنما كانت تتم بأسلوب علمي وموضوعي، يأخذ بالأسباب المتاحة بحسب كل عصر، ويستفيد من تجارب الأمم الأخرى دون حرج.

❖ **نظام الدواوين:**

تحدث ابن عاشور عن جذور هذا النظام فقال أنّه من محاسن شريعة موسى عليه السلام، فقال: "وهو من محاسن سياسة الشَّريعة الموسويَّة، ومن مقدّمات نظام الجماعة" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 142/9)، ثم بيّن ابن عاشور أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اقتبسه من الحضارات المجاورة، لينظِّم به أمور دولته، حيث قال: "وهو نظيرُ ما فعل عمر بن الخطَّاب من تدوين الدّيوان" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 142/9)، وهو نفس ما ذكره الطبري في تاريخه حيث قال أنّ عمر بن الخطاب: " "هو أول من دون الدواوين في العرب في الإسلام" (الطبري، 1387 هـ، صفحة 180/6)

تضم هذه الدواوين سجلات الجنود والعمال والرواتب والمصروفات والايرادات، وكانت الدواوين تكتب في كل منطقة أو اقليم بلغة أهلها.

في عصر الفاروق رضي الله عنه شهد النظام الإداري نقلة حضارية كبرى تمثلت في مدى اهتمام الخليفة وعنايته الفائقة بالنظم الإدارية، ففي عهده رسخت التقاليد الإدارية الإسلامية، كما يقول الطبري: "في هذه السنة 15هـ -636م فرض عمر للمسلمين الفروض ودوَّن الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة" (الطبري، 1387 هـ، صفحة 213/3). وهذا يؤكد مرونة العقلية الإسلامية في تعاملها مع المستجدات لتطوير الأساليب ولو عن طريق الاقتباس من الآخر.

❖ **النظام القضائي:**

يعتبر النظام القضائي الإسلامي من أروع النظم المكتوبة والمدونة في القضاء، ولم تشهد حضارة انسانية نظيره، فلم يكتفي بمعالجة قضايا المسلمين فحسب، بل عالج كذلك قضايا أهل الذمة، من أصحاب الديانات الأخرى، والذين يحيون تحت كنف الإسلام، إذ أجاز لهم أن يترافعوا في المحاكم الإسلاميّة، والتي تحكم لهم وفق القوانين الإسلاميّة، لا وفق قوانينهم، إنّ أرادوا أن يترافعوا فيها، ومن خصائص النظام القضائي في الإسلام، أنّه يستطيع استيعاب أية قضية ويعالجها وفق أهدافه في تحقيق العدل والأنصاف.

وفي هذا السياق يقول ابن عاشور أن القضاء كما أنه ضرورة حياتية تتطلبه الحضارة للفصل في النزاعات وبيان الأحكام، فهو قبل ذلك ضرورة شرعية حيث: " أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْرًا جَازِمًا وَحُكْمًا لَازِمًا" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 66/15).

كان الوالي هو من يحكم ويقضي بين الناس في بداية ظهور الاسلام، ولكن مع تطور الدولة الاسلامية واتساعها أصبح القاضي هو من يختص بالقضاء وأصبح يتم تعين قاضي في كل اقليم، وبذلك تطور النظام القضائي في الدولة الاسلامية.

❖ **ديوان المظالم:**

" هو الاخبار بالحكم الشرعي على سبيل الإلزام فيما يقع من نزاع بين الناس وبين من هو في جهاز الحكم في الدولة الاسلامية" (النبهاني، 1964، صفحة 203)، وهذا النظام لم تعرف البشرية نظيره قبل الاسلام.

الهدف من انشائه هو منع أصحاب القوى والنفوذ من الولاة والأمراء من ظلم الرعية، ولقد بين ابن عاشور في تفسيره أن علماء أهل الكتاب كانوا يحرفون الدين لخدمة الظلمة مقابل رشى يأخذونها منهم، فقال: ""ما يأخذونه من الرُّشى والجوائز من أهل الأهواء والظُّلم من الرُّؤساء والعامَّة على تأييد المظالم والمفاسد بالتَّأويلات الباطلة، وتأويل كلّ حكم فيه ضَربٌ على أيدي الجبابرة والظَّلمة بما يطلق أيديهم في ظلم الرَّعيَّة" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 192/4)، فجاء الاسلام بفلسفة جديدة للمظالم، تنقض ما كان عليه أهل الكتاب، وتؤسس لنظام جديد وحضارة جديدة، تستحق الأهلية في تولي القيادة الفكرية لحقوق الانسان في العالم.

❖ **نظام الحسبة:**

عرّفها ابن عاشور بقوله: "الحِسْبَة -بكسر الحاء-، وهي النَّظر في تمييز أحوال أهل السُّوق من استقامةٍ وضدّها (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 248/7)، والغرض منها هو مراقبة التجار ومتابعتهم في الأسواق لمعرفة مدى التزامهم بالأسعار وبالأوزان الصحيحة، وكان يطلق على من يقوم بهذه الوظيفة المحتسب وكان يحافظ على الآداب العامة في الأسواق ومتابعة التجار، وكان يطلق عليها ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد ذكر ابن عاشور أن أهل الحسبة مع ولاة الأمور لهم مسؤولية في إقامة شرائع الله على المجتمع، حيث قال: " وُلاة الأمور من الحكَّام وأهل الحسبة فإنَّهم الأولى بإقامة شرائع اللَّه في الأمَّة وبخاصَّةٍ إذا رأوا تفشّي الاستخفاف بما قصدته الشَّريعة" (ابن عاشور م.، 1984، صفحة 28/ 298)

4. خاتمة:

إن المتصفح للتحرير والتنوير لا يجد فيه تفسير القرآن الكريم فقط بل يجد أن الطاهر ابن عاشور قد أفرغ فيه جملة من المفاهيم والتصورات والأفكار حول عدة قضايا، على سبيل الاستطراد، ومن هذه القضايا: موضوع الحضارة.

لقد استطاع ابن عاشور من خلال تفسيره أن يبين أن الحضارة هي نقيض البداوة، وهي فعل بنائي يقتضي أسسا روحية ومعرفية ومادية، تبدأ من تغيير الفردي ويليه المجتمع ثم ينتهي بالأمة.

ولقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نذكرها فيما يلي:

- الحضارة في نظر ابن عاشور لا تقوم إلا على أساس روحي وعقدي، مع استحضار الجانب العقلي المتمثل في التعامل مع عالم الأسباب.
- التشريع من الجوانب المهمة في بناء الحضارة، ووجوده ينظم الحياة ويعصم من العشوائية.
- يعتبر الجانب الأخلاقي من القيم المطلقة التي لا تتغير، ولا تقوم حضارة إلا على أساس أخلاقي.
- الجانب السياسي مهم في تنظيم أحوال المجتمع المتحضر.
- الجانب الاجتماعي يقوم على مجموعة من القيم الحضارية، كالمساواة والعدل والحرية والأخوة.
- ركّز ابن عاشور على فكرة التلاقح الحضاري، مما يبرز دعوته إلى الانفتاح على الآخر تأثرا وتأثيرا، في إطار المنفعة والصلاح والبر.
- يعتبر الجانب المادي من الأسس المهمة في البناء الحضاري، ويتجلى في الجانب الصناعي والعمراني والإداري.

5. قائمة المراجع:

- بدران بن الحسن، فى مفهوم الحضارة، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذوالقعدة 1424الموافق 25 ديسمبر 2003.
- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978
- المقدمة، عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون، دار الجيل، دون تاريخ.

- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426 هـ -2005م
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الثانية 1985
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر1984م
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، دار التراث، 1387 هـ
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، دار صادر، 1414هـ
- مقدمة الدستور، النبهاني، 1964م
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، 1993م.
- شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، دمشق، دار الفكر، سنة 1399هـ- 1979م.
- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، بيروت، 1981م